

في الواجبات الكبرى

بقلم صاحب العزة الدكتور منصور فهمي بك
مدير دار الكتب والعضو بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

حين أردت أن أتحدث عن الواجبات الكبرى قصدت بذلك إلى التحدث عن بعض ما يوجهه على نفسه في هذه الظروف وجدان الشخص لراقي حيال الإنسانية ، حين يشعر أنه مدين لما بنم كثيرة ، وحيال أمته حين يشعر أنه مدين بشخصيته الميزة لقومه وذويه بما أعدوه له من كيان ، وفكر ، وثقافة ، وخلق .

وتبدو هذه الواجبات الكبرى منتزعة من الصميم المصقول أحيانا فيما يقوم به الأفراد لمصلحة العالم عامة . وأحيانا أخرى فيما يقومون به لخدمة الجماعة التي نشأتهم ودرجتهم في كنفها وأحضانها ، فهذه الواجبات لا تعدو إذن أن تكون إنسانية شاملة . أو قومية محصورة الحدود . وهي طالما تسير الواجبات الحارية المألوفة حيال أنفسنا وعائلاتنا وأعمالنا الخاصة . ولا تعارض بين الواجبات الكبرى وغيرها إلا في أحوال محدودة يستعان فيها بالتوفيق بينها جميعا ، أو بتوفيق الله لتغليب بعضها على البعض الآخر .

وليس يخاف حل أحد ممن تصل إليهم كفتي أن الأرض قد أصبحت في شتى أنحاءها المتحضرة مسرحا لمهدا لخطوات الشيطان وميدانا فسيحا للضلال الفاس والحروب الدامية التي نشرت الاضطراب ، وبسطت أجنحة الخراب ، وبدلت أمن الناس خوفا ، وفرحهم ترحا ، وشبعمهم جوعا ، وقررة عيونهم دموعا ، واستفراهم فزعا وجزعا وهلعا .

ولا يجوز لمن جنبته الأقدار قساوة هذه الحالة في هذه الفترة من الزمن أن يظل بمزله عما يمانيه الذين اصطلوا بناها ، فيقف منهم موقف المتفرج المنصرف عن التفكير فيما عسى أن يكون من نتائج الحرب وآامها في حين لا تقصر هذه النتائج على المحاربين بل قد تعداهم إلى من ليسوا في ميادينها ، ولم يكونوا من جناتها .

وإن مثل الذي يقف هذا الموقف السلمي من هذه الحرب الشعواء ، كمثل قصير النظر حين يقف في مفترق الطرق الصاخبة الخطرة المزدحمة فلا يلفتته في أفقه الضيق حول قدميه إلا ما يخلو من الأهمية ، دون أن يمتد بصره إلى ما قد يكون ذا خطر على كيانه وسلامته من حركة داهمة .

وهل يقف هذا الموقف ، لا من يجهل مقام التآزر الاجتماعي ، ويفضل عن أهميته
ونائبه ، بعد أن قربت الحصار بين الأرجاء ، ودانت بين نظم الاحتمالية وبين مختلف
الآراء والمشارب .

وهي عند ما أستعري في هذه الأحوال شؤون النابيين من مواطني ، وأستعرض بعض
مواقفهم ومساكنهم من هذه الحرب ، أشعر في قبضة أن في الوطن نفوسا حساسة لمصاب
الغير تمدها نزعات المروءة ، وتهزها ففحات الإحسان ، وقلوبا غير خالية من الإيمان بالواجبات
الإنسانية والقومية الكبرى .

وأظهر الإمارات لقيام امتنا بأوحاشات الإنسانية العامة ، ما عرفناه من الموصرين
والدهيين فيما حين استجابوا للدهوات الخيرة ، لما نادتهم الجمعيات العامة لتخفيف أرزاء
الحروب . وما عرفناه عن طائفة من مفكرين ، ندين يشغلون حقوقهم بما يبدو لهم أن فيه دفعا
للخصام ، وهدادا للتفاهم ، وتقريبا لطالب الحق والسلام . وإن ذلك النزوع الإنساني الخير
الدال على رقي الأمة قد لا تقعنا خطواته الوئيدة ، ولا بواكيره اليسيرة ، بل إننا نرجو أن
تسير في ذلك خبيا ، فإن الإنسانية تضيما في المكان الأكرم اللائق كلما ضاعنا أمة .
وواصلنا بالجهود وموتنها ومشاطرتها الآلام صاعة اشتداد الخطوب ، وكلما حاولنا الاشتراك
في مسانئها الكبرى . وحرصنا على أن يكون لنا رأي في حارها ، وعملا على أن يكون لنا
صوت مسموع في المشكلات والنظام التي تحدث في الأرض بين الناس ، فإن ما يحدث منها
سيؤثرنا لا محالة .

وما دما نريد لأنفسنا أن نكون أمة حية مستقلة تحيا مع الأحياء ، فيجب علينا أن
تقف من أنفسنا ومر الأمم موقف المتأثر والمؤثر ، والقابل والفاعل ، ولا نقنع بأن نكون
من المتعرضين على غيرنا ، أو نكون ممن يسيرهم هيدا الفيردون أن يكون لنا عمل مذكور
في مسيرة أو مسير الغير والحوادث . وليكن من المعلوم أن مساهمة المتبرمين في تخفيف وطأة
الحرب ومشوردها وأن عمل المعركين في بواعثها وأسبابها ونتائجها لا يكفيان لنشر الطمأنينة
وإخماد اللهب المشتعل وتسويد السلام . إنما يجئنا إلى أنه إلى جانب ذلك قد يتقرر لي
اتجاه بعضنا شديد حول المتقاتلين ، يتبصر لنا وجميع الناس أن يشتركوا فيه . ويتعاونوا
عليه ، على لرغم من تباهيم في الطبقات ، وتفاوتهم في العلم والتجربة ، واختلافهم في الجنس
والدين وأسن واللغة . ويمثل لي ذلك الاتجاه في أن نغمر النفوس كلها للحرب . وتملأ
الأفواه ذمها ، وتصيق رحاب الصدور بالحقد عليها وإصهار المقت ولإرداء بها وبكل
باعت لها أو دفع إليها . فإذا عمدت وانتشرت هذه الحركة الروحية ، وشمل الناس هذا التساج
المنهوى في سبيل السلم وشاعت في أجواء لدينا هذه النزعات الصافية البليغة فانها لا تثبت
أن يكون لها ضغط فعال تنفجر منه تيارات تمد من المنضاء في النضال ، ولا تثبت أن يكون

عما أترف تحقيق ما يرتجى لخير العالم وهدوئه . ولقد اشتد النزوع الى 'منية السلام في هذه الأيام الأخيرة . ولعل ما جاءت به الأنبياء منذ قليل من ذكر حركة لرجال الدين في أوروبا ترى الى مقاومة الحرب وتحقيق السلام المنشود ليست الا مظهرا للاتجاهات المعنوية الكامنة التي ينبغي أن يساهم فيها كل إنسان حين تتوجه نفسه لخدمة البشر . ويلوح لي أن هذه الدعوة الى أصول الأديان والإشادة بعبادتها ، علاجا شافيا لكثير من الأدواء الانسانية ومضاعفاتها الأثيمة التي في طبيعتها الحروب . وما دما نشير الى أصول الأديان ونشيد بها لها من مبادئ حكيمة رحيمة فقد وجب علينا أن نطالع الناس بما للإسلام من نظم وكلمات عليا متميزة في هذا المرقف التاريخي الخطير .

وعل هذا يكون أظهر ما يبدو من الواجبات الانسانية الكبرى ، حرصنا على أن تؤيد الجمعيات العاملة لتخفيف أوزار الحرب ، وأن تفكر في دواصير المزمنة مساوئها تمهيدا لاستقرار السلام ، وأن تؤازر النزعات الدينية المحفزة لخير الانسانية . وليس من شك أن لانسانية في مثل هذه المحن التي تصيبها اليوم ، وفي مثل هذه العواصف التي تعصف بها هي أحوج ما تكون الى أن يشغل الناس أنفسهم بالواجبات التي تؤدي الى كبت الأنانية ، والترويج للغيرة والإيثار .

أما أهم واجباتنا القومية الكبرى فقبل أن أشير إليها يجب أن أحمدة تومي ما قاموا به في أشد المواقف الاجتماعية من خدمات عامة وطنية ، فقد توالى سماواتهم . وتتابعتم أريحياتهم في دواعي الخير ومناحي البر ، إذ أقاموا الملاجئ للمعجزة وأبناء السهيل ، وأنشأوا دور الكفالات للطفولة البائسة ، واعدوا المصحات والمشافي ، وشبوا مصاعم الفقراء ، وتسمت همهم الى تخصيص المستنسين عمالا وفلاحين من أذى الحفاء ، وأنقذوا ناشئة الفقراء من حرمان الكساء . تلهم الخيرين بذلك روح ملك بار يوقظ في شعبه شمائل العطف والتعاون على الاصلاح .

بيد أنني حين أحمدة تومي هذا كله ، لا يفوتني أن أشع الى ناحية أحسب أنها كاملة بتحقيق خير كثير . فإن العالم يموج بالحوادث الجسام ويستمرص في الحرب نضالا حول المبادئ الاجتماعية والغايات الاقتصادية التي كانت من أهم العناصر في تأجيج نيران هذه الوقائع الدامية . فهل ينسى قادة الرأي منا أو يتناسون أن للشرق الاسلامي تاريخا مجيدا ونظما متمسدة هي أصنح ما تكون لتوفير السلامة ، وتميز للتقدم السليم . وربما كان في ذلك للتاريخ وتلك النظم من حسن لتوجيه ما تفيد منه الانسانية جمعا أيماء فائدة في سبيل الخير وبسط السلام . وقد يكون من واجب قادة الرأي وزعماء الفكر مهما اختلفت أظواهرهم في جزئيات المسائل وتفصيلاتها أن يكونوا هيئة رشيدة تعمل لاستغلال الذخائر الموروثة من النظم التشريعية والعادات الاجتماعية التي استنبطت من الاسلام وأظلت بنيتها الغايل

يكل من ماش في كنف الأمم الإسلامية محاطا بالاسلمين من شرائع ونظم وتقاليد . ولعلمهم حين يقيمون هذه الهيئة يستطيعون بها أن يقيموا قلعة حصينة تحمي حوزتهم من قسائل أى نظام اجتماعى سبى . قد تمتدحض عنه الاحداث الجبارة الباطشة . ومن حق بلادنا أن تبيض وفق موروث تاريخها المزكى ونزعاتها الاجتماعية المتناسقة مع طبيعتها ، ما دام ذلك لا يتنافى مع المبادئ الانسانية السليمة التى تفرض على الساس جميعا . ولعل فى إقامة هذه الهيئة ما من شأنه أن يشد أزر المحافظة الشريفة التى قنت فى إحدى محاضراتى بصددها . "إنى أربأ بالمحافظة الرشيدة ان يساء فهمها فأكره أن تسوخ لأحد أن يتخذ شرا من شرور الماضى ليفرضه على الحاضر أو يقتلع شجرة خبيثة مما أنبتت اليهود الخالية ليستصلح لها تربة لينبتها فيها . إنما أكره فى المحافظة ألا تنفرط فيما قل من حيرات الماضى لحشره فى زمرة خيرات الحاضر . ولا أكره من المحافظة أن تأتى بالزهرة الذابلا من الماضى فتضعها بين زهرات الحاضر فتردهو معها وتبيض " .

وعلى ذلك تقاضينا واجباتنا القومية الكبرى أن نعمل على الاحتفاظ بشخصيات اسلاميتنا وعريبتنا وشرقيتنا ، ليكون لنا من ذلك مدد وقوة نتدفع بهما فى وجه كل نظام يريد أن يضيع علينا معنوياتنا القومية . ويمرنا إلى الاندماج فى معنويات انفيرحين أراد الله أن يميز الأمم بمعنويات مترعة من نفسها وشعورها لا بما يتترع من نفس الضير وشعوره .
والخلاصة : إذا غمرت قلوبنا بالترعات الإنسانية ، وإذا عداا نعترف من معين قوميتنا وماضينا وقامت فينا هذه الهيئة التى تمنيتها عاملة مخلصه متوجهة إلى الله خير الوطن والمواطنين كانت جديرة أن تقابل بالبر والارتياح من كل من يعنيه شأن البلاد وأهنيها مهما تابنوا أحزابا وشيعا وطرائق . بل إنها لتقابل بالارتياح والبر كذلك ممن يهمهم أن تحتفظ البلاد الإسلامية بظاهها الجميل الجذاب ، وأن ترقى إلى مكانتها الرفيعة فى درجات الحضارة ، وأن يشد نصيبها فى العمل لتوطيد الخير الشامل ، ودم الحياة السعيدة ما

منصور فهمى